في سبيل لبنان حرّ!

ليست الحرية الوطنية مذهباً عقلياً رياضياً أو مذهباً مثالياً مُغرقاً في مثاليته أو وجودياً ملحداً.

الحرية الوطنية شعور ذاتي ملتزم مسؤول، تجلوه إرادة واعية، وحيث تجتمع حرية وإرادة، يتولّد الصراع النفسي الذي يغدو بمثابة الربّان يقود السفينة ويوجهها نحو الشاطئ الآمن. وهي إثبات موصول للمسؤولية التي تحقق وجود المواطن اللبناني وعدم انعزاله عن المرحلة التي يعيشها.

ولشدّ ما تأخذ هذه المسؤولية شكل صراع عنيف مع قوى خارجية باغية تأبى - دفاعاً عن مصالحها- إلا أن تمارس طاقتها في السيطرة حيناً، وفي التآمر أحياناً. ومسؤوليتنا في هذه الحال تعني مقاومة هذه القوى، وعدم الخضوع لها، ومن ثمَّ الخلاص من ربقتها، وهذا الجانب يبلور نوعاً من فكرتنا، أو فلسفتنا الوطنية عن الحرية. أما الجانب الآخر والأهم، والذي لا نجاح لنا في معزل عنه، فهو الإصلاح الجذري الذي يتناول مجتمعنا بالتطوير والتغيير، وتحريره من كل ما علق به من رواسب مادية ومعنوية على السواء.

وكلما وجّهنا جهودنا شطر هذا الهدف بالذات، جنّبنا وطنيتنا الخطر الذي يتهدّدها في الداخل والخارج. ولا بدّ هنا من احترام حرية الفرد وإرادته، ليتاح لنا استثمار طاقته المبدعة بجميع ألوانها وإمكاناتها، وتمكينه من الشعور الحر بذاته، ليباشر في عفوية ورغبة، نشاطه في خدمة مجتمعه، ومن ثم تحويل سلبيته إلى إيجابية يفيد منها ويهتدي بها، فيتجه مثلاً مَن غلبت عليه عدوانيته نسبياً إلى صفوف العسكر ومَن غلبت عليه طواعيته إلى مراكز الدبلوماسية وهكذا..

لن تتوفر لنا حرية الانتفاع من خبرات الأفراد في وطننا، وتفاعل قواهم المبدعة مع حاجات مجتمعهم، ووضع أهدافنا موضع اعتبارهم، إلا إذا تمتّع الفرد منّا بحريته المسؤولة، ومارس فعلاً هذه الحرية. هذا، ريثما نتوافق أكثر فأكثر على حقيقة وطنيتنا العقائدية الحيّة بالاستناد إلى فلسفة فلاسفتنا وبالاستجابة لتراثنا الحضاري دون سواه.

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه